من حديث

الماء في الأدب العربي

الدكتور جميل سعيد

وحديث الماء في الأدب العربي ، وفي غيره من الآداب ، طويل طويل ولكنني سأتناوله من زاوية واحدة ، زاوية الإحساس بالعطش . وحديث العطش وإن كان كثيراً ما يدور مع حديث الجوع ، ولكننا نراهم حين يقارنون بين الحاجة إلى الماء ، والحاجة الى الطعام يجعلون الماء عندهم مقدماً على الطعام وقد قالوا : إن الحاجة اليه أشدّ والصبر عنه أشقّ وأتعب . وكثيراً ما يموت الإنسان عطشاً ، وقلّما يموت جوعاً .

وقصة كعب بن مامة الأياديّ [1] التي آثر فيها رفيقه بالماء على نفسه فمات عطشاً ، مما يدور في كتبهم ويُضرب بها المثل عندهم ، واليها يشير أبو تمام [2] في قوله :

يجود بالنفس إذ ضنّ البخيلّ بها والجود بالنفس اقصى غاية الجود

وهم حين يفاضلون بين حالة الجائع وحالة العطشان ، يجعلون حاجة الماء واهميته تسبق حاجة الطعام ، ويقولون : « إن العطشان إذا حصل له الريّ بالماء تراجعت اليه قواه ونشاطه وحركته ، وصبر عن الطعام وانتفع بالقدر اليسير منه . اما العطشان فانه لا ينتفع بالقدر

---

(١) بلوغ الارب للألوسي ١/٨١

(٢) الديوان : ١/٢٩٣

الكثير من الطعام ، ولا يحدث له القوة والاغتذاء .

إن الماء له أهميته عند أهل الصحراء الذين يخافون أكثر ما يخافون من صحرائهم الحرّ والعطش . وهم لايتخيّلون عذاباً أكثر من عذابها .

ومن الواضح ان بيئة الناس الجغرافية أو الطبيعية ، هي التي تصبغهم ، وتصبغ خيالهم بصبغتها . إن الأسكيمو الذين يعيشون في الثلوج ، ولا يرون الشمس إلا قليلاً ، ويرون الريح الباردة حشيت بفتات الثلوج حشواً ، تهب عليهم فتفعل فعل الأبر في وجوههم . هؤلاء الأسكيمو إذا تخيّلوا العذاب ، أو تخيلوا جحيمهم تخيلوه زمهريراً بارداً ، قد لفّه الظلام لفاً ، وهاجت فيه العواصف الثلجية من كل صوب[1] .

وزعم زرادشت ان العقاب في الآخرة ، انما هو بالبرد والزمهرير والدَمق ، وفي اللسان : « الدَمق بالتحريك : الثلج مع الريح يغشى الانسان من كل أوب حتى يكاد يقتل من يصيبه ، وقد نظر الجاحظ الى هذا ، ونقل تعليل أصحاب الكلام له . قال[2] :

وزعم اصحاب الكلام أنّ زرادشت — وهو صاحب المجوس — جاء من بَلخ[3] وادعى ان الوحي نزل عليه . وانه حين دعا سكان تلك الناحية الباردة الذين لايعرفون الا الأذى بالبرد ، ولا يضربون المثل إلا به ، حتى يقول الرجل لعبده : لئن عدت الى هذه لأنزعنّ ثيابك ، ولأقيمنك في الريح ، ولأوقفنّك في الثلج ... فلما رأى موقعَ البرد منهم هذا الموقع جعل الوعيد بتضاعفه ، وظن ان ذلك أزجر لهم عما يكره » .

أما العرب أهل الصحراء فقد صور لهم — سبحانه — العذاب بقوله[4] « فالذين كفروا قُطِّعتْ لهم ثياب من نار ، يُصَبُّ من فوق رؤوسهم الحميم . يُصهر به ما في

---

(١) Semple: influence of Geografic Enivronment P : 40

(٢) الحيوان ج ٥/٦٧ وما بعدها .

(٣) مدينة مشهورة بخراسان .

(٤) سورة الحج ، آية : ٢٢ .

بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد . كلما أرادوا ان يخرجوا منها من غمّ اعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق » وبقوله ـ سبحانه ـ[1] : « ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نَضِجتْ جلودهم بدّلناهم جُلوداً غيرها ليذوقوا العذاب. ان الله كان عزيزاً حكيماً » . وحين يتحدث ـ سبحانه ـ عن عذاب أهل النار يجاوز صور العذاب والألم كلّها الى العطش؛ ذلك لأن العرب لايعرفون في صحرائهم عذاباً كعذابه ولا لوعة كلوعته . يقول سبحانه[2] : « ونادى أصحاب النار اصحاب الجنّة ان أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، قالوا : إن الله حرمها على الكافرين » فالآية الكريمة تصوّر نعيم أهل الجنة يراه أهل النار فلا يتحسّرون على شيء منه تحسرهم على الماء . ويقول سبحانه [3] : (واستفتحوا وخاب كل جبّار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد ، يتجرّعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان ، وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ .. » .

والصور التي تتميز بها الجنة عن النار كثيرة في القرآن الكريم ، على ان صورة الماء هي الصورة الواضحة البارزة التي تدور وتظهر عند المقارنة بينها ، قال تعالى [4] : « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ومساكن طيّبةً في جنّات عدْنٍ ورضوانٌ من الله اكبرُ ذلك هو الفوز العظيم » وقال سبحانه [5] في الحديث عن أهل الجنة : « ونزعنا ما في صدورهم من غِلّ تجري من تحتهم الأنهار . وقالوا : الحمدلله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لو لا أنْ هدانا الله . لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أنْ تلكم الجنّة التي أورثتموها بما كنتم تعلمون » وقال سبحانه [6] : «ولمن خاف مقام ربّه جنّتان فبأيّ آلاءِ ربكما تكذّبان ، ذواتا أفنان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان تجريان . فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

---

١) سورة النساء ، الآية ٥٦ .
٢) سورة الاعراف ، الآية ٥٠ .
٣) سورة ابراهيم ، الآية ١٥ .
٤) سورة التوبة ، الآية ٧٢ .
٥) سورة الاعراف ، الآية ٤٣ .
٦ سورة الرحمن ، الآية ٤٦ .

وقد ترى المقارنة واضحة كلّ الوضوح في صورة الجنة تقابلها صورة النار ، وترى لفظة الأنهار — وهي أهم ما يتبادر إلى ذهن العطشان حين يتصور الماء الكثير — ترى لفظة الأنهار تكرر في الآية الكريمة فتتعلّق بها نفس السامع ولا سيما العطشان ، ويتبعها بخياله متحيراً لما لهذه الأنهار الكثيرة المتعددة من صور ، يقول سبحانه[1] (أفمن كان على بيّنة من ربه كمن زُيِّن له سوءُ عمله ، واتّبعوا أهواءهم مَثَلُ الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماءٍ غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى . ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمنْ هو خالدٌ في النار ، وسقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم .. » .

وكان العرب المسلمون يرون الماء من نِعمَ الله الكثيرة التي لا يوفّيها الشكر حقها . وفي العقد الفريد [2] قال الحسن لفرقد السنجي : « بلغني أنك لا تأكل الفالوذج ! قال : يا أبا سعيد أخاف ألّا اؤدي شكره. قال : يا لُكَع ، وهل تؤدي شكر الماء البارد في الصيف!؟ » والماء نعمة ، ومقامه فوق كل مقام ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في بئر رومة « الماء لا ينجسه شيء [3] . وهم يرون الصبر عنه غاية لا تدرك ، وحسبك منهم أن يمدحوا الرجل في مروءته فيقولوا فيه « لو علم فلان أن شرب الماء البارد يضع من مروءته لما ذاقه » وعندهم ان هذا غاية ما يقال . وإذا أرادوا المقارنة بين ما تتمناه النفس ، وما تنفر منه ، وأرادوا أن يفرّقوا بين هذا وهذا ، قالوا كما قال لقيط بن زرارة في يوم جبلة [4]

شتّان هذا والعناق والنوم والمشرب البارد والظل الدوم

وإذا أرادوا ان يتحدثوا عن المنى ، أحسن المنى ، وعن طيب وقعها من نفوسهم ، قالوا كما قال بعض الأعراب [5].

---

١) سورة محمد الآية ١٤ .
٢) ١/٢٩٣ .
٣) الحيوان للجاحظ ٥/١٤٧ .
٤) مجاز القرآن لابي عبيدة (ج / ٤٠٤ .
٥) الحيوان ٥/١٩٢ .

منى إن تكنْ حقاً تكن احسن المنى وإلاّ فقد عشنا بها زمناً رغدا
أمانيّ من سلمى حسان كأنما سقتني بها سلمى على ظمأ بردا

ويتحدث الرجل عن مقام ابنه في نفسه ، فلا يرى اكثر من أن يقول [1] :

إذا كان أبناء الرجال حزازة فأنت الحلال الحلو والبارد العذب

ويذكرون ديارهم ، والعربي معروف بحبه لوطنه ، وبحنينه اليه ، وقد ملأوا كتبهم بأحاديثهم عن الغربة والإغتراب ووقعها في نفوسهم . أقول يذكرون ديارهم ، فاذا تذكروها كان أول ما يحنون اليه ، وأول ما يتشوقون اليه ويتمنونه هو ماؤها وشرابها .

يتذكر أبو القمقام الأسدي بلده ، وأول ما يتذكر منه جبلهم . واذا ما تذكر الجبل كانت صورة الماء أول الصور التي تسرع الى خاطره . وتراه يحسّ لمائهم طعماً خاصاً ، لا يجده في غيره من المياه . حتى لتراه يرى أنّ كلّ المشارب ذميم بالقياس إليه . يرى الماء ويذوقه فتسرع إلى نفسه والى خاطره صورة الماء في بلده ، فيذمّ المياه كلها بالقياس اليه ، وتتلهف نفسه إلى جبله فلا يجد اكثر من أن يدعو له « بالسقيا » . ويخص بهذه « السقيا » ظله بالعشيّ وبالضحى . ثم يخص بها ماءه أيضاً ، ذلك الماء الذي يكون بارداً حين يكون غيره من المياه حميماً . وعندنا انهذا الإحساس إحساس الروح ، لا إحساس الجسم وانه يتعلق بإحساس النفس والخاطر أكثر منه متعلقاً بإحساس الفم واللسان .

ثم أنظر بعد هذا إلى حرصه على هذا الماء وإلى تعلّق نفسه به ، وانظر الى صورة الماء وهو في حفر الصخر تسرع الى نفسه ، فيتمنى لو استطاع ان يحرّم مذاق ما في هذه القلات على اللئام . يقول أبو القمقام الأسدي :

إقرأ على الوَشل السلام وقل له : كل المشارب مذ هُجرتَ ذميم
جَبَلٌ يزيد على الجبال إذا بدا بين الربائع والجثوم مقيم

---

١) شرح القصائد ـ الانباري ص ٢٢٣

سقياً لظلّك بالعشيّ وبالضحى ولبرد مائك والميـــاه حميم
لو كنت أملك منع مائك لم يذق ما في قلاتك ـ ما حييتُ ـ لئيم

ان هذه الصورة الأخيرة ، صورة ابي القمقام الأسدي يتعلق بماء الوشل[1] هذا التعلق ، تورد الى نفسي صورة أبي نواس يتعلّق بالخمر حتى يقول :

أجلّ عن اللئام الراح حتى كأن الراح تعصر من عظامي[2]

وفي قصيدة المعرّي[3] :

طَرِبن لضوء البارق المتعالي ببغـــداد وهناً ما لهنّ ومالي

في هذه القصيدة التي قالها وهو ببغداد بذكر حنينه الى المعرّة ، وطنه . وقد ابتدأها بالحديث عن طرب الإبل ترى البارق يلمع ببغداد بعد وهن من الليل فيهيجها الى وطنها ؛ لأنه يلمع من ناحيته . في هذه القصيدة يأخذ في وصف شدة شوق الإبل إلى وطنها فيقول:

إذا طال عنها سرّها لو رُءوسها تُمَدُّ اليـه في رُءُوس عوالي

ويقول الخوارزمي في التعليق على بيته هذا : « أبصار هذه الإبل قـد سمت الى ذلك البارق ، وكلّما بعُد عنها وارتفع تمنّت أن تقطع رءوسها وترفع اليه على فروع الرماح . ومحصول معنى البيت شدّة اشتياق الإبل الى الوطن »[4] .

ثم أنظر ماذا تشتاق الإبل من هذا الوطن ، وماذا تتمنى منه :

تمنّت قُوَيْقاً والصَّراةُ حِيالها تُرابٌ لها من أيْنُقٍ وجِمال

تمنّت قُوَيْقاً ! وقويق هذا نهر على باب حلب . وأبو العلاء يتعجب منها كيف تتمنى قويقاً ، وهي عند الصَّراة ـ والصراة مجتمع دجلة والفرات ـ ببغـداد . والصراة أطيب

---

(١) (أنظر معجم ياقوت في كلمة « الوشل » وانظر كتاب : « الشوامخ » للدكتور محمد صبري : ص : ٣٤) .

(٢) تطور الخمريات في الشعر العربي لجميل سعيد ص ٢٠٩ .

(٣) انظر : سقط الزند طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٧ ، ١١٦٢/٢ .

(٤) (انظر ص ١١٦٥ من المصدر نفسه) .

ماءً وأفضل من قُوَيْق . وأبو العلاء لا يجد أكثر من أن يدعو عليها لجهلها في تفضيلها ذاك على هذا . وبعد حديثه عن الإبل اللواتي طربن .

وأنشَدْنَ من شِعر المطايا قصيدة ... وأودَعْنها في الشوق كلَّ مقال

نرى البرق يهيجه الى وطنه ، على نحو ما هاج الإبل الى وطنهـا . فيقول ، وكأنه يصيحُ ويفغر :

فيا برق ليس الكرخ داري وإنما ... رماني اليه الدهر منذ ليالي

فهل فيك من ماء المعرّة قطرة ... تُغيثُ بها ظمآن ليس بسال

هذا كلُّه و « ماء المعرة » لا يقرن « بماء دجلة » . ماء المعرّة ماء آبار وماء دجلة ماء النهر العذب السلسبيل ولكنّه ذوق الروح لا ذوق الفم واللسان .

ويقول أبو الطمحان الأسدى [1] :

كأن لم يكن في القصر قصر مقاتل ... وزوْرة ظلّ ناعم وصديق

ولم أرد البطحاء امزج ماءَها ... بخمر من البرّقتين عتيق

فيتشوق أول ما يتشوق الى ماء البطحاء يمزجه بالخمر . وقال مطير ، عبد بني قريط يتشوق الى أرضه والى « صدّاء » مائهم المعروف [2] :

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً ... و« صدّاء » مني و« البياض » بعيد

بواد من اللعباء أعلاه عوسج ... وأسفله رمث عليه جهيد

وقال آخر [3] :

ألا ليت شعري هل ابيتنّ ليلة ... بصحراء ما بين الجثوم إلى شعر ؟

وهل أردنّ العين والشملُ جامعٌ ... مقيم النوى قد حان ذاك على قدري؟

واذا أرادوا التعبير عما يقع في نفوسهم موقعاً لا يدرون كيف يردونها عنه لم يجدوا اكثر من أن يقرنوه بالماء ، ثم يروحون في استقصاء أوصاف الماء الذي يقرنونه به يفضلونه

---

(١) الحيوان ٥/١٠٨ (٢) بلوغ الارب للالوسي ج ٣/٤٢٩ .

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

على غيره من المياه قالوا كما قالت أمّ فروة [1] .

وما ماء مزن ايّ ماء تقوله ... تحدّر من غرّ طوال الذوائب
بمنعرج أو بطن وادٍ تحدبت ... عليه رياح المزن من كل جانب
نفى نَسَم الريح القذا عن متونه ... فما ان به عيبٌ تراه لشارب
بأقصر ممن يقصر الطرف دونه ... تقى الله واستحياء بعض العواقب

وامتلأ شعرهم بالنسيب ، وبالحديث عن النساء وقد شهر الشاعر جرير برقة حديثه أو غزله . وتراه يريد أن يتحدث عن شدة شوقه إلى الحبيبة ، فلا يرى اكثر من ان يشبه شوقه اليها بشوقه ـ وهو ظمآن ـ إلى الماء ، يقول [2] :

منعت شفاء النفس ممن تركته ... به كالجوى مما تجنّ الجوانح
تركت بنا لوحاً ولو شئت جادنا ... بُعَيدَ الكرى ثلج بكرمان ناصح

واللوح : العطش ، أو شدته . ويتحدث عن ريق الحبيبة ، فلا يرى ما يشبّهه به غير الماء ، الذي يمعن في وصفه ، فيقول :

وما ثَغَب باتت تصفّقه الصَّبا ... بصراء نهى اتأقته الروائح
بأطيب من فيها ، ولا طعم قَرقَفٍ ... برّمان لم ينظر بها الشرق صالح

أو يقول [3] :

تطيب الأرض إن نزلت بأرضٍ ... وتُسقى حين تنزلها الربابا
كأن المسك خالط طعم فيها ... بماء المزن يطّرد الحبابا

ويتحدثون عن الأمر يشتهونه ويتشتاقون اليه ويدفعون عنه ، بشوقهم إلى الماء يرونه ، ويدفعون عنه . يقول جرير [4] :

---

(١) (الحيوان ٥/١٤٠) .
(٢) الديوان طبعة الصاوي ص ١٠٠) .
(٣) الديوان ص ١٦ .
(٤) الديوان ص ٥٢ .

أجـلّاً عن برد الشراب وقد أرى مشارع للظمآن يجري حبابها

ويقول [٥] :

نرى شرباً له شُرُعٌ عذابٌ فَنُمنَعُ والقلوب له صوادي

قليلٌ ما ينالك من سُليمى على طول التقارب والبعاد

ويقول [٦] ايضاً :

حـلّأتنا عن قراح المزن في رصفٍ لو شئت روّى غليل الهائم الصادي

كم دون بابك من قوم نحاذرهم يا امّ عمرو وحدّاد وحـدّاد

ولمكانة الماء من نفوسهم كانت غاية دعائهم ان يقولوا كما قال المهلهل في رثاء اخيه :

سقيت الغيث إنك كنت غيثاً ويسـراً حين يلتمس اليسار

وكانت السقيا غاية ما يدعون بها لاحبتهم ، يقول جرير [١] داعياً :

فلا دية ـ سُقيتِ ـ وديت اهلي ولا قَوَداً بقتلى مسـتفادا

الّا صاحبيَّ نزر سـعادا لقرب مزارها وذرا البعادا

ويقول داعياً لأهلها [٢] :

خُبِّرتُ اهلكِ اصعدوا من ذي الصفا سـقياً لذلك من فريق اصعدا

وعرفت بينهم فهاج صـبابة صوت الحمام اذا الهديل تغرّدا

ويدعون للمنازل بالسقيا ، ومما يدور في كتب البلاغة قول طرفة :

وسقى ديارك غير مفسـدها صوب الربيع وديمةٌ تهمى

ويقول جرير [٣] :

وسقى الغمام منيزلا بعنيزة اما تصاف جدىً واما تربع

(٥) الديوان ص ١٤٥ .

(١) الديوان ص ١٢٤ .

(٣) الديوان ٣٤٢ .

(٦) الديوان ص ١٥٢ .

(٢) الديوان ص ١٨١ .

ويدعو بالسقيا الى قبر حبيبته ، فيقول [1] :

قالوا : تعزَّ فقلت لست بكائنٍ ... منّى العزاء وصدع قلبي يقرع

فسقاك ! حيث حللت غير فقيدةٍ ... هزج الرواح وديمة لا تقلع

ويدعو للقبر ايضاً ، إذ يقول :

فسقى صدى جدثٍ ببرقة ضاحك ... هَزِمٌ أجَشُّ وديمة مدرار

هزم أجش اذا استحار ببلدة ... فكأنما بجوانبها الأنهار

ومن الجميل الحسن قول سعيد الطبري :

اروضتنا — سقاكِ الله — هل لي ... الى افياء دوحك من مصير

غنينا في ذراك على غناء ... يوافق رجعه سجع الطيور

وكم في فرع اثلك من صفير ... وكم في أصل اثلك من زفير

واحشاء تؤلفها الحشايا ... كتأليف العقود على النحور

و « برد الشراب » عندهم يتمثل به في كل محبوب ، وعنـــد كل مشتهي ، يقول عمر بن أبي ربيعة :

قال لي صاحبي ليعلم ما بي ... أتحب القَتَولَ اخت الرباب

قلت : وجدي بها كوجدك بالما ... ء اذا ما عدمت برد الشراب

ويروى أن علياً ـ رضي الله عنه ـ سأله سائل قال : « كيف كان حبكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال ـ رضي الله عنه ـ : كان ـ والله ـ احبّ الينا من اموالنا وآبائنا وامهاتنا ، ومن ابنائنا ومن برد الشراب على الظمأ » .

وكانت العرب تحبّ الحديث الحسن ، تستمتع به وتفضله على غيره من المتع . يقولون إن عبد الملك بن مروان كتب الى الحجاج بن يوسف أنه ملّ مُتَعَ الدنيا ولذاتها ، إلا

(١) ٣ : ٣ الديوان .

لذة الحديث ومتعته ، وطلب اليه ان يبعث اليه من يحسن الحديث فبعث اليه الشعبي الفقيه المشهور بحسن الحديث . وكان الشعراء يمتدحون عشيقاتهم فيجاوزون كل متعة الى متعة الحديث هذه . ولله كثير عزّة ! ما اجمل قوله في هذا ، اذ يقول :

وكنت اذا ما جئت سعدى بأرضها أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ودّ جليسها اذا ما انقضت احدوثة لو تعيدها

هذا الحديث الذي تتعلق به نفوس العرب هذا التعلق ، اذا ارادوا ان يشبهوا حسنه بشيء حسن الموقع في نفوسهم لا نجدهم يجدون احسن من برد الشراب وقعاً في النفوس ، وهم ينشدون لبعض الأعراب :

حديثك اشهى ـ فاعلمي ـ لو اناله الى النفس من برد الشراب على الظما
لقد اكثر الواشون فيك ملامتي فكانوا بما ابدوا من اللوم الوما

او يقولون كما قال القطامي فيه :

فهنّ ينبذن من قول يصبن به مواقع الماء من ذي الغلة الصادي

ولوّن الماء تعابيرهم ، فقالوا لما لا يستحسنونه : « لا ماء فيه » قال ابن قتيبة [1] : وهو يتحدّث عن اللفظ والمعنى في قول لبيد الشاعر :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

قال : « هذا وان كان جيّد المعنى والسبك ، فانه « قليل الماء والرونق » . وقالوا : « فلان ليس في وجهه ماء » واستعاروا الماء في كلامهم لما يحسن موقعه ومنظره ، ويعظم قدره ومحله من نفوسهم قال ابو نواس [2] :

لما ندبتك للجزيل أجبتني : لبّيك واستعذبت « ماء كلامي »

وقالوا عن المنذر بن « ماء السماء » وهو آخر ملوك الحيرة ، قالوا : نسب الى امه

(١) الشعر والشعراء ص ٩ . (٢) الديوان ص ١١٠ .

وكانت تسمى ماء الســـماء تشبهاً لها بماء السماء في الحسن والصفاء والطهارة . وقالوا : صبغ له ماء ، ولون له [1] ماء » .

وقالوا : « ماء الوجه » ، وكنوا به عن الحياء وهو من اهم ما يمتاز به المرء عندهم . قال الشاعر [2] :

. . . . . ماء الحياء يجول في وجناته

وقال أبو تمام [3] :

رددت رونق وجهي في صحيفته ردّ الصقال لماء الصارم الخذم

وما ابالي وخير القول اصدقه حقنت لي « ماء وجهي » ام حقنت دمي

وقالوا : « ماء الشباب » ، واداروه في شعرهم . قال عمر بن ابي ربيعة :

وهي مكنونة تحيّر منها في اديم الخدّين « ماء الشباب »

وقال ابو العتاهية :

ظبي عليه من الملاحة حلّة « ماء الشباب » يجول في وجناته

وقال احمد بن ابراهيم بن اسماعيل :

اهيف ماء الشباب يرعد في خديه لولا اديمه قَطَرا

وما اجمل اشارة ابن الرومي الى هذا ، في قوله يرثي بستان ، المغنية :

يا حَرَّ صدري على ثلاثة اموا ء هُريقت في التراب والمدر

ماء شباب ونعمـــة مُزِجا بمـــاء ذاك الحياء والخفر

تبتّلَ العود بعـــد فقدكم وازدجر اللهو أيّ مزدجر

وغاض ماء النعيم يتبعكم وانهمر الدمعُ ايّ منهمر

---

(١) الحيوان ج ٥/١٤٢ .

(٢) الحيوان ج ٥/١٤٢ .

(٣) الديوان ص ٢١٩ وفيها : بها الصارم .

فتراه يستعير الماء في ابياته هـــذه الى كل ما يُحبّ ويعظم فيقول : « ماء الشباب » و « ماء النعمة » و « ماء الحياء » و « ماء النعيم » . وقـــالوا : « ماء الحسن » . وما اجمل اشارة ابن المعتز اليه في قوله :

لي مولى لا اسميه كل شيء حسن فيـــه
تصف الأغصان قامته بتثنٍّ كتثنيّه
ويكاد البدر يشبهه وتكاد الشمس تحكيه
كيف لا يخضرُّ عارضه ومياه الحسن تسقيه

وقالوا : « ماء الصبا » . قالوا انشد ابن السكّيت [1] :

قـــد قلت اذ ماء صباك يُرعش واذ اهاضيب الشباب تبْغَشُ

وتحدث عشاقهم عن الوجد والبكاء ، وكنّوا عن الدموع ، فقالوا : « ماء الشوق » و « ماء الجفن » و « ماء الصبابة » و « ماء الهوى » . قال العتّابي :

اكاتم لوعات الهوى ويبينها تخلّل ماء الشوق بين جفوني

ويقول ابو الطيب المتنبي ، وهو يتحسّر على شبابه :

والمرء يأمل والحياة شهية والشيب أوقر والشبية أنزقُ
ولقد بكيت على الشباب ولمتى مسودة ، « ولماء وجهي » رونق
حذراً عليه قبل يوم فراقه حتى لـكدت « بماء جفني » اشرق

وقال ذو الرمة :

أأن ترسمت من خرقاء منزلةً « ماءالصبابة »من عينيك مسجوم

وقال ذو الرمة أيضاً :

أداراً بحزوى هجت للعين عبرة « فماء الهوى » يرفضّ او يترقرق

(١) اخبار ابي تمام للصولي ص ٢٦ .

وقالوا : « ماء الندى » و « ماء النوال » ، يقول البحتري :

وما انا الاّ غرس نعمتك الذي أفضت له « ماء النوال » فأورقا

وقفت بآمالي عليك جميعها واراك في امساكهنّ موفقا

واخذ النقاد على ابي تمام قوله :

لا تسقني « ماء الملام » فانني صبٌّ قد استعذبت ماء بكائي

قال الصولي ـ وهو ينتصر له ـ : قالوا : ما معنى ماء الملام ! ؟ وهم يقولون : « كلام كثير الماء ، وما اكثر ماء شعر الاخطل ! ، قاله يونس بن حبيب ... وقال عبد الصمد :

ايّ ماءٍ « لماء وجهك » يبقى بعد ذلّ الهوى وذلّ السوآل !؟

فصيّر لماء الوجه [1] ماءً ...

هذه صورة الماء ومكانته وموقعه من نفوس العرب ، إن العطش في صحرائهم لا يحتمل وان عذابه افظع صور العذاب واقساها ، وانهم يستهينون بكل عذاب حين يقرن به . جاء في العقد الفريد [2] ذكروا أن اعرابياً اتى عين ماء صاف في شهر رمضان فشرب حتى روى ثم أومأ بيده الى السماء فقال :

انْ كنت قدّرتَ الصيا مَ فأعفنا في شهر آب

أولا ، فإنـا مُفطرو ن وصابرون على العذاب

جميل سعيد

---

(١) اخبار ابي تمام للصولي ص ٣٤ . (٢) ٣/١١٨ .